تصدير
- المترجم -

«يلعب هو دور الذكر، وتلعب هي دور الأنثى، وهو يلعب دور الذكر لأنها تلعب دور الأنثى، وهي تلعب دور الأنثى لأنه يلعب دور الذكر، وهو يقوم بدور ذلك النوع من الرجل الذي تعتقد هي أن نوع المرأة، الذي تقوم بلعب دوره، لا بد أن تعجب به، وهي تقوم بدور ذلك النوع من المرأة، الذي يعتقد هو أن الرجل الذي يلعب دوره، لا بد أن يرغب فيه، ولو لم يكن يلعب دور الذكر، لكان على الأرجح أشد منها أنوثة، اللهم إلا في الحالات التي تكون فيها مسرفة في لعبة الأنوثة، ولو لم تكن تلعب دور الأنثى لكانت على الأرجح أشد منه ذكورة إلا في الحالات التي يكون فيها مسرفاً في لعبة الذكورة.

وهكذا يزداد لعبه شدة، ويزداد لعبها نعومة[١]...»

«ليست كل أفعالنا تميل نحو الجنس ميلاً واعياً أو غير واع، كما يظن فرويد، لكل مدار الأمر هو أننا نلقى حياتنا الجنسية وقد أثرت في معظم أفعالنا...».

«الحياة الجنسية تريد أن نبلوها ونعرفها تمام المعرفة، لأنها إحدى السبل التي منها يتخطى الإنسان الإنسان، على أن يكون قد وافاه واتصل به والتأم فيه[٢]».

في هذا الكتاب يعرض الكاتب، باختصار، للعلاقة الوشيجة القائمة ما بين الرجل والمرأة - الذكر والأنثى - عبر مسيرة الإنسان الطويلة المديدة، منذ نشأته حتى استيطانه إنساناً حضارياً في مدنيات عالية التطور بعد أن تهيأت أسبابها: الجغرافية والجيولوجية والاقتصادية والبيولوجية والثقافية...

فعرج المؤلف على الإنسان البدائي لينتقل بنا، بعد ذلك إلى بلاد الرافدين ومن ثم إلى مصر فالهند وأخيراً إلى بني إسرائيل.. متطرقاً إلى الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي - الحضاري، ليشكل مع الأسطورة والثقافة والبنية الاجتماعية لحمة متماسكة.

أحسست، إذ قرأت الكتاب، للمرة الأولى، وكأني بمسافر في قطار سريع يلتزم برنامجاً صارماً، لا يتوقف إلا في الأماكن التي رسمها لنا المؤلف، فما أن يبدأ في

١- عن الكاتبين بيتي وتيودور روزاك - ذكورة وأنوثة - ترجمة الدكتورين: عبد الوهاب محمد المسيري وهدى عبد السميع حجازي.

٢- رينه حبشي: بدايات الخليقة، ترجمة خليل رامز سركيس.

الكشف عما تخفيه تلك العين الساحرة: الماضي، من قصص وأحداث ومشاهد، حتى يجذبنا إلى موضع آخر جديد وفي النفس، لما تزل بعد، رغبة في معرفة المزيد.. مما حدا بي، بين الحين والآخر، إلى أن استوقف المؤلف واستمهله لأضيف إلى الترجمة، كلمة أو جملة أو بضع أبيات لتكتمل الفكرة وتغدو لوحة يرضى بها بل ويرتاح لها القارئ العربي.

وهذه الدعوة إلى استلهام الماضي، بتقصي أساطيره وبنيته وما خلفه من آثار، ليست وليدة الحاضرة، فقد دعا إليها، منذ زمن، نخبة وافرة من علماء الانتروبولوجيا، والإثنولوجيا، والاجتماع، والفلاسفة، والباحثين والمثقفين... تتنازعهم ميول شتى تختلف باختلاف مشاربهم ومضاربهم - للأسف لم يترجم إلى العربية، حتى الآن، إلا النزر اليسير مما قدمته ذوو الاختصاص في تلك الميادين - فخلص البعض إلى أن: «العقل الإنساني، على الرغم من الفروقات الثقافية بين مختلف أجزاء البشرية، هو ذاته هنا وهناك، وأنه يمتلك الطاقات ذاتها. - كلود ليفي شتراوس - «ونادى البعض الأخر باستلهام الماضي للخروج من حضارة الحاضر - حضارة المأزق والأزمات - التي جرّت الإنسانية إلى هوة حتفها بأن وضعت كوكبنا الأرضي تحت رحمة ذرة لا ترى ولا تقع تحت الحواس، ودعا فريق ثالث الأوروبيين للخروج من قوقعتهم والتخلي عن التغني بملحمة الرجل الأبيض وأسطورة رجالهم اللامعين.. حتى إن السوربون لا يحنو على الفكر الهندي إلا من أجل التذكير بأولوية الفكر الغربي الوحيد المقدر له أن يبدد «هذا الليل حيث جميع الأبقار سوداء، ويستطرد غايتان بيكون يتحدث بلسان قطاع كبير من مفكري الغرب:

«إن التاريخ لم يعد تاريخنا، نحن، والفن لم يعد فننا، نحن، والكتب لم تعد كتبنا، نحن، والتفكير لم يعد تفكيرنا، نحن. إن عالمنا أضحى ضوءاً خافتاً، مرتعشاً، تعصف به رياح الشيء المقدس، والخرافي، والأقدار الغريبة، وهو يعلم بأنه لم يعد مقياس العالم، لقد أدرك مكانه».

ونحن، إذ ندعو القارئ إلى الإلمام بالماضي، بماضيه خاصة، إلماماً يشمل أقصى منعرجاته، فإننا ندعوه، في الوقت نفسه إلى أن يَنْفَذَ منه إلى اليوم الذي هو فيه».. فالأصالة لا تستخف بالماضي، ولا تنكر المستقبل، وهي تتيقظ لغنى اليوم الحاضر[1]».

فائق دحدوح

١- رينه حبشي: بدايات الخليقة، ترجمة خليل رامز سركيس.